وحدة مصر وسورية... الزواج كان متسرعاً والطلاق جاء مفاجئاً (1 من 3)

د. رءوف عباس

18 فبراير 1998

فى ذكرى 40 عاما على الوحدة المصرية السورية إلى الجيل الذى لم يعش أحداث هذه الوحدة وإلى الجيل الذى عاشها. علّنا نستخلص منها درسا مستفادا للمستقبل

كانت الوحدة المصرية السورية التى أنبتت "الجمهورية العربية المتحدة" فصلا مثيرا من فصول التاريخ العربى المعاصر، عبرت عن أمل الجماهير العربية الكبرى التى تجمع شتاتهم، وتفرض وجودهم على الساحة الدولية، وتخلص الوطن العربى من البؤرة الصديدية التى أصابت عضوا من الجسدالعربى فى فلسطين.

علقت الآمال على دولة الوحدة التى ولدت على غير انتظار فجأة مع مطلع فبراير 1958، وحصلت على شهادة ميلاد رسمية بعد استفتاء شعبى كاسح فى 21 فبراير، وجاءت ولادتها فى أشد فصول الحرب الباردة تقلبا وهياجا، فصل ملىء بالأعاصير والعواصف والرعود التى أثارها قطبا الحرب الباردة وأصابت فيما أصابت شعوب العالم التى فضلت أن تملك عصمتها بيدها وتنأى بنفسها عن الارتباط باحدى الكتلتين، جاء ميلاد الوحدة فى هذا الجو المضطرب، بعد عامين من حرب السويس التى كانت علامة فارقة فى تاريخ حركة التحرر الوطنى فى العالم وتاريخ الشرق الأوسط. ولكن الوحدة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ونصف، فما لبث أن وقع انقلاب الانفصال فى 28 سبتمبر 1961 لتطوى صفحة من تاريخ العرب المعاصر، ولينزوى معها أمل الوحدة الذى داعب أحلام الأجيال التى عاشت تنادى بالقومية العربية من العقد الأول من القرن العشرين والتى راعها أن تتبدد أحلامها بتقسيم المشرق العربى الى عدد من الدول والدويلات روعى فى تصميمها مصالح الاستعمار فاقترن نضالهم ضد الاستعمار بالنضال من أجل اذابة الحدود المصطنعة واقامة الدولة العربية الواحدة.

تطلعت الجماهير العربية الى أن تكون الوحدة المصرية السورية نواة لدولة العرب الواحدة، فاذا بالوحدة تنفصم عراها قبل أن يتم تدعيم أركانها. وبقدر ماكان الزواج متسرعا، كان الطلاق مفاجئا، بل كانت الوحدة تحمل فى طياتها بذور الانفصال. فاذا كنا اليوم نلقى نظرة على الوحدة، فمن حق جيل الشباب الذى لم يعش أحداثها، والذى يقلقه واقع الأمة العربية، ويحيره أمرها أن يقف على أطراف القصة ليستخلص منها الدروس المستفادة التى يجب أن تكون نبراسا يهتدى بها كل من يهمهم مستقبل الأمة العربية.

****

كانت سورية مهد الحركة العربية ومنبت الفكرة العربية منذ أواخر القرن الماضى، عندما بدأت نخبة من المثقفين العرب المتأثرين بالثقافة العربية، فى مواجهة فكرة الجامعة الاسلامية التى كان يتبناها السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى، ويتخذ منها أداه لضرب الدعوة الى الاصلاح والحركة المناوئة لحكمه المستبد، ثم مالبثت الفكرة العربية أن تبلورت من خلال العمل السياسى العربى المقاوم لعنصرية الحكم التركى فى العقد الأول من هذا القرن، عندما عملت حكومة الاتحاد والترقة على طمس الثقافات غير التركية، وتتريك الشعوب التى تضمها الامبراطورية العثمانية، مما أدى الى احتدام الحركات القومية ضدها، وكان من بينها الحركة العربية التى لعبت سورية الدور الأكبر فيها وشاركها العراق مشاركة محدودة وبلغت المواجهة ذروتها باعدام الأتراك لقادة الحركة العربية عند بداية الحرب العالمية الأولى.

وهكذا كانت سورية مركز الثورة العربية الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى التى ركب الهاشميون موجها، وجنوا – وحدهم- ثمارها، ورغم تمزيق سورية الى أربع دول، الا أن توحيد سورية، واقامة الدولة العربية الواحدة ظل غاية يسعى القوميون العرب لادراكها، ودعوة تستخدمها الأحزاب السياسية على إختلاف توجهاتها لحشد الجماهير وراءها.

أما مصر فقد إختلفت ظروفها عن سورية إختلافا بينا، فكان وقوعها تحت الاحتلال البريطانى عام1882، وسعيها للتخلص من ربقته، يجعل الحركة الوطنية فيها تتمسك بالتبعية للدولة العثمانية التى كانت طوق النجاة من الاحتلال الأجنبى، وخاصة أن مصر كانت –فى ظل الحكم العثمانى- تتمتع باستقلال ذاتى كامل كسبه لها محمد على، ودعمه حفيده الخديو إسماعيل، فلم تكن يد الدولة العثمانية فى مصر محسوسة على نحو ما كانت عليه الحال فى الولايات العربية الأخرى. وترتب على تلك الظروف الخاصة التى فرضها وجود الاحتلال البريطانى تبنى مصر لفكرة الجامعة الاسلامية

ونفورها من الفكرة العربية، بل واعتبار المنادين بالعروبة عملاء للاستعمار الأوربى. يريدون تمزيق دولة الخلافة الاسلامية.

وعندما هزمت الدولة العثمانية فى الحرب الأولى وعانت مصر من الحماية البريطانية، كانت دعوة القومية المصرية هى الانتماء البديل الذى تقبل به النخبة السياسية المصرية التى تسعى لتحقيق استقلال مصر، وعكست أفكار أحمد لطفى السيد وتلاميذه ملامح الفكرة المصرية، وجاءت ثورة 1919 لتحول الفكرة الى حركة شعبية، امتزج فيها الكفاح الوطنى بتأكيد الهوية المصرية.

وظل الموقف من العروبة والحركة العربية سلبيا، فلم تلق الثورة العربية الكبرى 1916 ترحيبا فى مصر لعلاقة الانجليز بقادتها، ورفض سعد زغلول فكرة التنسيق مع دعاة القومية العربية عندما جاءه وفد منهم (من بينهم ساطع الحصرى) يعرض عليه توجيه طاقة الحركة الوطنية المصرية لدعم الحركة العربية، فكان رد زغلول : "إذا جمعت صفرا إلى صفر إلى صفر ماذا تكون النتيجة" تعبيرا عن إستخفافه بالحركة العربية، ولم يقتنع بالاجابة التى قدمها الوفد العربى بأن النتيجة تصبح واحدا صحيحا".

وفى فترة مابين الحربين العالميتين، كان التيار الغالب فى مصر هو تيار القومية المصرية. مع بعض الاختلاط بالفكرة الاسلامية، فكان التعاطف مع الحركات الوطنية العربية فى سورية وفلسطين يدور فى سياق "الأخوة الاسلامية"، ولم يجذب مصر الى الاهتمام بالعروبة سوى القضية الفلسطينية والمخططات الهاشمية (ذات الصلات البريطانية) لاقامة مشاريع وحدوية كالهلال الخصيب وسورية الكبرى، وهما مشروعان عارضتهما مصر حرصا على مصالحها الاقليمية، وكان اهتمامها بفلسطين بدافع الحرص على الأمن القومى المصرى. وتبنت مصر مشروع "الجامعة العربية" بحكم وزنها الاقليمى لتقطع الطريق على المخططات الهاشمية.

وجاءت حرب فلسطين 1948، وما ترتب عليها من قيام دولة الكيان الصهيونى ليزيد من اهتمام مصر بالحركة العربية، وإن ظل الشعور بالانتماء القومى المصرى قويا تتردد أصداؤه فى برامج التعليم، بل وفى المؤشرات العديدة التى صاحبت ثورة يوليو عند قيامها، (مثل نقل تمثال رمسيس من ميت رهينة الى باب الحديد، والأناشيد القومية المصرية، وغير ذلك من مؤشرات). وجاء إهتمام جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة بالدائرة العربية من منطلق الأمن القومى المصرى، وجاءت بعدها الدائرة الأفريقية ثم الدائرة الاسلامية.

ولكن إهتمام ثورة يوليو بتأمين الدائرة العربية من خلال تشجيع وتأكيد حركات التحرر الوطنى ماديا واعلاميا، جعل الشعوب العربية الخاضعة للاستعمار ترى فى ثورة يوليو طوق النجاة من الاستعمار. وجاءت حرب السويس 1956، لتجسد فى عبد الناصر صورة المخلص (بتشديد اللام وكسرها) الذى تعلقت به آمال الشعوب العربية.

****

هذه خلفية ضرورية لابد منها لفهم ظروف طرفى العمل الوحدوى (مصر وسورية)، فبينما كانت الفكرة العربية والحركة العربية وحلم الوحدة العربية تمثل وجدان الشعب السورى، كانت شيئا هلاميا غير محدد المعالم عند الشعب المصرى، الذى لم يتعرف على العروبة الا من خلال مفاهيم التضامن مع اخوة الدين واللغة، كتعاطف الجار مع جاره وليس نجدة الأخ لأخيه. أقول هذا باعتبارى أحد أبناء الجيل الذى تفتح وعيه فى نهاية الأربعينات، وعاش أحداث الخمسينات – وخاصة تجربة الوحدة- بوعيه الكامل ووجدانه. وأستطيع أن أقرر أن حدث الوحدة جاء مفاجأة لم يعد لها المصريون، ولم يستوعبوا فكرة العروبة التى هبطت عليهم فجأة، وامتزج فهمها عند أجهزة الاعلام بخلطة عجيبة جمعت بين الدينى والقومى، واستدعت صلاح الدين الأيوبى من سياق تاريخى مغاير لتدلل على أصالة الروابط بين الشعبين السورى والمصرى، وناهيك عن الفاطميين والمماليك، ودور الأزهر فى حماية الثقافة العربية الى آخر ما سيق من مبررات.

****

كانت سورية فى منتصف الخمسينات تجلس على فوهة بركان فالساحة السياسية تموج بأحزاب متعددة التوجهات، والعراق يتربص بسورية التى أيدت على طول الخط مواقف عبد الناصر المعارضة لحلف بغداد، إلى حد تدبير إنقلاب عسكرى يقوم به الدكتاتور المخلوع أديب الشيشكلى يدعمه غزو عسكرى عراقى لسورية فى نفس توقيت العدوان الثلاثى على مصر، وهى المؤامرة التى تم كشفها، وعززت موقف الضباط السوريين المؤيدين لعبد الناصر والذين لعبوا دورا هاما فى دعم مصر خلال العدوان بنسف أنابيب البترول التى تمر عبر سورية، وتعالت أصوات هؤلاء وبعض الساسةفى أعقاب العدوان الثلاثى للمطالبة بالوحدة مع مصر لانقاذ سورية مما تتعرض له من ضغوط. وجاء مشروع أيزنهاور عام 1957الذى دعا إلى إنفراد الولايات المتحدة بالدفاع عن الشرق الأوسط لشغل الفراغ الناجم عن إنسحاب القوى الاستعمارية التقليدية ومقاومة الخطر الشيوعى، ليزيد من توتر الساحة السياسية فسورية، ويدعم الاتجاه المنادى بالوحدة مع مصر.

كانت مفاتيح القوة فى سورية –عندئذ- بيد مجموعة من الضباط لكل منهم أتباعه، بعضهم ينتمى لحزب سياسى معين وبعضهم الآخر ليس له إنتماء حزبى، ولكنه قومى النزعة، أما العمل السياسى فكان قسمة بين البعث والحزب الشيوعى،

وفى صيف 1957 تولى رئاسة أركان الجيش ضابط شيوعى هو عفيف البزرى، مما جعل الغرب يرى فى تلك التطورات مؤشرا على تحول سورية إلى قاعدة للتغلغل الشيوعى فى المنطقة، وأرسلت أمريكا مبعوثا طوف بالبلاد المحيطة بسوريا لحشدها للتدخل العسكرى ضد سوريا.

وعلى الفور حشدت تركيا قواتها على الحدود السورية، كما قامت القوات العراقية بالتجمع على الحدود المشتركة مع سوريا فهرع قائد الأركان السورى عفيف البرزى وعبد الحميد السراج قائد المخابرات السورية إلى القاهرة يعرض الأمر على عبد الناصر وطلب مساعدة مصر، وعلى الفور قررت القاهرة إرسال أسطول مصرى يضم بضع ناقلات للجنود وثلاث مدمرات وصلت بالفعل إلى ميناء اللاذقية فى 14 أكتوبر 1957، مما كان له صداه فى سورية وفى الأوساط الدولية التى يعنيها أمر المنطقة فكان معنى ذلك أن مصر لا تقبل أن تترك سوريا نهبا للمؤامرات الاستعمارية، وأنها تقف معها فى خندق واحد.

وعلى الصعيد السورى، بدأ حزب البعث يدفع الأمور بقوة فى اتحاد الوحدة مع مصر، فرغم أن الحزب يعد قاعدة الدعوة للقومية العربية إلا أنه كان يفتقر إلى القاعدة الشعبية التى تكفل له الوصول إلى الحكم فى إطار نظام ليبراى، ورأى البعث فى عبد الناصر أمله المنشود فى تحقيق أهدافه لسياسية على الصعيدين المحلى والقومى، فقد أصبح الزعيم القومى العربى بعد عام 1956 الذى سلمت له الجماهير العربية قيادها، وهو أول حاكم مصرى فى التاريخ يتوفر له ذلك، ومن ثم رأى فيه البعث "بسمارك" العرب، الذى يملك القوة والشعبية، على حين يستطيع قادة البعث أن يقدموا له الفكر والتوجيه. هذا فضلا عما هو معروف من عداء عبد الناصر للشيوعية ونفوره من لشيوعى، فتسليم أمور سوريا لعبد الناصر من خلال الوحدة ينهى التنافس البعثى –الشيوعى على السلطة، ويحسمه لصالح البعث.

وساعد على توجيه مسار الأحداث وجهة الوحدة الفورية عجز أجنحة الجيش المتصارعة فى الاتفاق على زعامة تتولى زمام الأمور، فكان كل جناح فيها يتوجس خيفة من الآخر، وزادت شقة الخلاف بينهم فى ذلك الوقت الدقيق من تاريخ البلا، وشجعهم قادة البعث على التوجه إلى القاهرة لطلب الوحدة مع مصر.

وفى ليلة 12/11 يناير 1958، طار إلى القاهرة أربعة عشر ضابطا يمثلون مختلف مراكز القوى فى الجيش السورى، يحملون معهم مذكرة بطلب الوحدة، وقع عليها جميع أعضاء المجلس العسكرى السورى. ولكن جمال عبد الناصر طلب أن يأتيه العرض من الحكومة السورية الشرعية، ومن الرئيس السورى شكرى القوتلى، وليس من قيادة الجيش السورى.

وعاد الضباط – فى اليوم التالى- وبصحبتهم صلاح البيطار، قطب حزب البعث ووزير الخارجية، ليلتقوا بالرئيس عبد الناصر فى 16 يناير، ويعلن أمامه صلاح البيطار " أن الحكومة السورية تريد إتمام الوحدة كمطلب شعبى وقومى دائم، وكطريق لا بديل غيره إلى إستقرار سورية".

وأبدى عبد الناصر إستعداده لقبول المبدأ، ولكنه وضع ثلاثة شروط يتوقف عليها قبوله للوحدة الفورية:

1. أن يجرى إستفتاء شعبى على الوحدة فى مصر وسوريا، حتى يقول الشعبان فيهما رأيهما الحر، ويعبران عن إرادتهما وإختيارهما.
2. أن يتوقف النشاط الحزبى السورى، وأن تقوم كل الأحزاب السورية –دون إستثناء- بحل نفسها.
3. أن يتوقف تدخل الجيش فى السياسة توقفا تاما، وأن ينصرف ضباطه إلى مهامهم العسكرية، ليصبح الجيش أداة دفاع وقتال، وليس أداة سلطة وسيطرة، ومعنى ذلك أن قادة الكتل السياسية فى الجيش – وفى مقدمتهم أعضاء المجلس العسكرى جميعا- عليهم ترك الخدمة العسكرية والتفرغ للعمل السياسى.

وأصر جمال عبد الناصر على قبول هذه الشروط دون تعديل، حتى يقبل بالوحدة بين البلدين.

وكانت تلك الشروط تنم عن براعة سياسية وبعد نظر، فقد حرص عبد الناصر على تصفية المسرح السورى من القوى الضاغطة العسكرية والمدنية على السواء، حتى لا تعتبر نفسها مصدر الشرعية السياسية لدولة الوحدة. وحرص على أن يستمد النظام الجديد شرعيته من الشعبين المصرى والسورى وحدهما من خلال الاستفتاء.

وقبل التحرك السريع صوب الوحدة الذى قام به ضباط الكتل العسكرية داخل الجيش، عدل الحزب الشيوعى السورى تكتيكه لمواكبة تيار الوحدة الجارف مع محاولة الحد من قوته، فطرح فكرة إقامة إتحاد فيدرالى نظرا لاختلاف ظروف البلدين وتعزيزا للحرية والديمقراطية، غير أن رئيس الأركان عفيف البزرى لم يلتزم برأى الحزب، أو لعله فضل عدم مخالفة إجماع المجلس العسكرى حتى يظل له ولحزبه وجود فى النظام الجديد. ولكن مخاوف الشيوعيين كان لها ما يبررها على ضوء تمسك عبد الناصر بتصفية العمل الحزبى.

وبعد مناقشات صاخبة، وافق البعث على شروط عبد الناصر، فقد حصل رجاله على تأكيدات شفوية من عبد الناصر بأن "الاتحاد القومى" التنظيم السياسى الوحيد لدولة الوحدة، سوف يقام وتجرى الانتخابات له بعد قيام دولة الوحدة دستوريا، فأعطاهم ذلك الوعد أملا فى أن يكون لهم دور القوة المحركة للتنظيم السياسى فى غيبة الأحزاب الأخرى، وخاصة أنهم مهندسو الوحدة، فهم يقدمون للاتحاد القومى الفكروالحركة، ويكون نصيب عبد الناصر الزعامة والقيادة. وقد أثبتت الأيام

فيما بعد، أن قادة البعث كانوا على قدر كبير من قصر النظر والسذاجة، فقد أراد عبد الناصر أن يصوغ نظام دولة الوحدة على نسق آخر، لا يسمح لهم بأن يتحولوا لمركز قوة داخل التنظيم السياسى أو داخل السلطة.

كانت الجماهير فى سورية تتقد حماسا للوحدة، وأصبحت تمثل قوة ضاغطة لا يمكن إسقاطها من الحساب، ولم يعد بمقدور أحد من العسكريين أو السياسيين أن يتراجع أو يماطل، فقد خرجت عجلة الأحداث منذ الحشود العسكرية على حدود سوريا فى خريف 1957 عن إطار التحكم، وفى يوم أول فبراير 1958 أعلن الاتفاق على أسس الوحدة بين مصر وسورية. وفى 5 فبراير عقد مجلس الأمة بالقاهرة إجتماعا، كما عقد مجلس النواب السورى فى دمشق اجتماعا. قرر كل مجلس فى إجتماعه الموافقة على طرح أسس الوحدة فى استفتاء عام يجرى يوم 21 فبراير مع ترشيح جمال عبد الناصر رئيسا لدولة الوحدة التى حملت اسم"الجمهورية العربية المتحدة". وجرى الاستفتاء فى الموعد المحدد، وجاءت نتيجته كاسحة لصالح الوحدة ورئاسة عبد الناصر.

وفى 24 فبراير وصل عبد الناصر إلى دمشق فاستقبل استقبالا رائعا زحفت فيه الجماهير من مختلف أنحاء سورية إلى دمشق فى مشهد فريد من مشاهد التاريخ العربى المعاصر. كان مثار قلق الأنظمة العربية التى نظرت بعين الريبة إلى زعامة عبد الناصر مثل العراق والأردن والسعودية ولبنان وجيران سورية من غير العرب وخاصة تركيا التى كتب رئيس وزرائها عدنان مندريس إلى جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكى يقول: "إن الموقف الحالى وتطوراته تدعونا إلى إعادة تقييم الأمور، لقد ذهبت إلى فراشى بالأمس وعلى حدود بلادى الجنوبية ستة ملايين، واستيقظت صباح اليوم لأجدهم قد أصبحوا 36 مليونا.." وأثار قيام دولة الوحدة حلف الأطلنطى فعقد دورة طارئة للنظر فى التغيرات الاستراتيجية الناجمة عن دولة الوحدة، فراح ممثل تركيا ينبه أعضاء الحلف إلى خطورة عبد الناصر حليف السوفييت، وما يمثله قيام الوحدة من وقوع تركيا بين فكى الكماشة الشيوعي على حدودها الشرقية والجنوبية. وقدم ممثل بريطانيا مذكرة عن "التوسع الامبريالى المصرى" ذكر فيها زملاءه بأطماع محمد على التوسعية فى المشرق العربى فى القرن التاسع عشر، وأكد أن عبد الناصر هو الوريث لتلك الأطماع. وأن هدفه النهائى ضم البلاد العربية جميعا تحت حكمه، إضافة إلى السودان وبلاد القرن الافريقى، وأنه بصداقته للسوفيت يفتح الباب للفوذ الشيوعى للتغلغل فى المنطقة التى تضم مصالح حيوية للغرب بترولية واستراتيجية. وحاول ممثل إيطاليا وكذلك ممثل اليونان عبثا أن يقنعا زملاءهما بأن حركة القومية العربية حقيقة واقعة، وأن عبد الناصر لا يضمر العداء للغرب، وأنه يمكن التعامل معه لو تفهم الغرب الأمانى القومية للعرب.

أما الاتحاد السوفيتى، فقد فاجأته الطريقة التى تم بها إعلان الوحدة والأسلوب الذى تمت به، وخاصة أنها تضمنت تصفيته لدور الحزب الشيوعى السورى، فقد أسرع زعيمه خالد بكداش بمغادرة دمشق إلى صوفيا يوم 4 فبراير 1958 (قبل انعقاد مجلس النواب السورى الذى كان أحد أعضاءه)، واتخذ صوفيا مركزا للهجوم على دولة الوحدة وعبد الناصر. هذا فضلا عن رؤية خروشوف المعادية للفكرة القومية عموما والقومية العربية خصوصا على نحو ما اتضح فيما بعد عندما نشب الصراع بين عبد الكريم قاسم وعبد الناصر بعد قيام ثورة العراق، وقيام حملة علنية من الهجوم السافر بين عبد الناصر وخروشوف نتج عنها قيام عبد الناصر باعتقال جميع الشيوعيين فى الجمهورية العربية المتحدة ليلة رأس السنة (1959/1958)، وظلوا فى السجون حتى عام 1964.

****

كان هدف الوحدة نبيلا يجسد أمل الأمة العربية فى إقامة الدولة العربية الواحدة، ولكن إعلان الوحدة المصرية-السورية بهذه الطريقة جاء تلبية لضغوط خارجية وداخلية تختص بها سورية، فكان الارتباط بين البلدين ضرورة أمن قومى أكثر من كونها تحقيق لهدف قومى. ولم تكن مصر مهيأة تاريخيا لهذا النوع من العلاقة، فبدأت متاعب التوافق والمواءمة تطل برأسها لتمهد الطريق إلى إنفصال مفاجئ على نحو ما سنرى.

****